سياحة رسولية في بلاد حوران

بقلم حضرة الاب فردينان توتل اليسوعي

تقدَّم الينا الرؤساء اجابةً الى دعوة خاصة من السيد الفضال المطران نيقولاوس القاضي رئيس اساقفة بصرى وحوران ان نقيم الرياضات في جهات حوران في زمن الصوم الاربعيني فكان ختام الرياضة في ازرع صباح ٢٩ آذار الماضي فاحتفل سيادته بالقداس الحبري في كنيسة مار الياس القدمى الشهيرة ووزَّع بيده على الاولاد الصغار جسد المسيح لاوَّل مرة. ولاوَّل مرة برز الاولاد امام اهاليهم بالحلل البيض واكاليل الزهور التي جاءت بها من دمشق راهبات القلبين الاقدسين بقصد الحفلة

ثم خرج المطران من الكنيسة فشيَّعه القوم الى بيت آل عزّام واخذ الزوَّار يتوافدون عليه من كبار وموظفين ومسيحيين ومسلمين ونحو الساعة العاشرة والنصف دخل « الضافة » رسول وانبأ بقدوم امير الدروز الاكبر حمد باشا الاطرش

فبدت على وجوه الحاضرين لوائح همّة تبيَّنتُ منها ان القادم ليس كسواه من اهل القرى. وما كانت دقائق الَّا شخص امامنا رجل قد بلغ اشده معتدل القامة متزيٍّ بزيّ الافرنج ما عدا الطربوش والكوفية الحريرية البيضاء التي كانت تلثم عارضيه فيبدو من هالتها وجه اسمر بعينين براقتين وشوارب سود غليظة

فقام المطران ورحَّب بالامير وقبَّلهُ على وجنتيه واجلسه عن يمينه واصطفَّ في مدار المكان المعيَّن من مشايخ واعيان مقدَّمين للاسقف المسيحي واجب الولاء وعبارات الاخاء لما له من الفضل على الدروز الساكنين ابرشيتهُ لانه كان تدخَّل بينهم وبين الاتراك مرارًا منعاً لسوء التفاهم وسفك الدماء وتمهيدًا لسبل الوئام وحسن الاتفاق

*

ما مضت على ذلك اليوم المشهود اربعة اشهر حتى انقلبت الاحوال ظهرًا لبطن. طارت شرارة الفتنة من الجبل الى حوران فاضرمت نيران الحرب وباتت قرية ازرع مركزًا لجيش الانتداب يحمل منهُ على العصاة وغدا المسيحيون الحورانيون يوجل

وضيق لا يعرفون الى اي فئة ينضوون . وقد تشتت شمل الكثيرين منهم وأحرقت غلاتهم ونهبت بيوتهم وسُلبت امرالهم . فهاجروا الديار الى دمشق او الى درعا حرصاً منهم على الارواح

تلك حوادث جبل الدروز المشؤومة التي اخذت منذ اسابيع تقلق البلاد السورية وتلفت الحاظ اوربة . وقانا الله سوء عواقبها واخمد لظى نيرانها فيعود بالقريب العاجل الى بلاد حوران سلمها فيقوى فلاحها على زراعة حقوله وتنبت الارض ما يقوته ويقوتنا فتخفّ وطأة الغلاء الفاحش الذي لم تشهد مثيله البلاد منذ الحرب العظمى

على اننا بمناسبة هذه الظروف رأينا ان ندوّن في المشرق بعض ما جمعناه من الافادات عن ابرشية حوران أيام تجوّلنا فيها لالقاء عظات الرياضات المتروء بها . فسرنا الى تلك الاصقاع لإتمام اعمال الرسالة والقلب ملؤه رغبة الى مشاهدة تلك الانحاء الحافلة بالآثار القديمة والاطلاع على احوال المسيحيين فيها

ثم عدنا الى زحلة مركزنا فعكفنا على مطالعة بعض ما كتبه العلماء في حوران وشؤونها من عرب وافرنج مقتبسين آراءهم متنقّدين في طابعهم فكتبنا هذه الرسالة وقسمناها ثلاثة فصول : ١ لمحة في تاريخ حوران على مرّ الزمان . ٢ احوال ابرشيتها الكاثوليكية الملكية . ٣ اعمال المرسلين اليسوعيين فيها

١ لمحة في تاريخ حوران

اسمها وحدودها

قال ياقوت الحموي في كتابه معجم البلدان :

« حوران بالفتح ويجوز ان يكون من حار يحور حوراً (ومنهُ قولهم) ونعوذ بالله من الحَوْر بعد الكَوْر اي من النقصان بعد الزيادة »

وان من زار بلاد حوران في ايامنا تحقق ان الاسم لائق بالمسمّى لما فيها من القحط والمحل في مواضع شتى لكن حوران لم تكن هكذا على ايام ياقوت وهو القائل فيها :

« كورة واسعة من اعمال دمشق من جهة القبلة ذات قرًى كثيرة ومزارع وحرار وما

زالت منازل العرب وذكرها في اشعارهم وقصبتها بصرى. قال امرؤ القيس:

ولما بدت حورانُ والآل دونها نظرتَ فلم تنظر بعينيك منظرا »

فليس اذاً من المعقول ان يكون معنى حوران «بلاد النقصان»

وفي الحقيقة لم يتفق العلماء باجماع الرأي على تحديد معنى كلمة حوران فمنهم من قال انها بلاد المغاور وغيرهم قال انها البلاد السوداء وغيرهم البلاد البيضاء اشتقاقاً من الاصل العبراني (חור) والعربي حورَ اي ابيضَّ. على ان هذه المعاني كلها مقبولة لما في حوران من المغاور التي يسكنها البشر قديماً ولان الحجارة البركانية السوداء كثيرة فيها ولان الثلوج الناصعة البياض تغطي جبالها مدة مديدة من السنة

وفي ايامنا يطلق اسم حوران على البلاد الواقعة بين دمشق شمالاً ونهر اليرموك وجبال جلعاد جنوباً. وبادية سورية شرقاً واراضي الجولان ووادي الاردن غرباً. وتقيس مساحتها تقريباً مئة كيلومتر بالطول وسبعين كيلومتراً بالعرض وتنقسم الى اراضي الغوطة والجدور واللجا والنقرة وجبل الدروز

ومعدل ارتفاع هذه البلاد فوق سطح البحر ٧٥٠ متراً تقريباً وقد حدث فيها قديماً اضطرابات طبيعية عظيمة فهاجت فيها العناصر وانفجرت البراكين وفارت وأزبدت وصبَّت نيرانها وقذفت قذائفها فغشَّت الاراضي برجوم سوداء منها صغيرة متبعثرة بين الرمال والحقول ومنها ضخمة اشبه منها بقطع الجبال يشاهدها المسافر حيثما اتَّجه فتقوم بوجهه وتعرقل سيرَهُ لاسيما في بلاد اللجا حيث شبهوها بالبحر اذا هاج وماج وتجلَّدَ فجأةً فلا تكاد ترى فيها مساحة مترين مربعين الَّا تخالها وعرٌ بين منخفض ومرتفع

حوران قبل العهد الروماني

ورد ذكر حوران في سفر تثنية الاشتراع (٣: ١٣) فسماها ارض باشان (اي مخصبة) ولقبها بارض الجبابرة وكانت تشمل اربع ايالات: مَعْكة في الشمال الشرقي وجشور في الشمال الغربي وارجوب في الجنوب الشرقي وباشان في الجنوب الغربي

وسكنها الاموريون والكنعانيون وكانوا قوماً حاذقين بالفنون والصناعة فينسب اليهم الاثريون الاسد المنحوت بالحجر البركاني الاسود الذي اكتُشف في قرية شيخ

سعد في حوران وهو الآن محفوظ في دار العلوم الافرنسية في دمشق وهو يدلّ على ان اصحابهُ بلغوا من العمران شأوًا بعيدًا لما فيهِ من تناسب الاجزاء واتقان النقش. والمرجّح ان هذا التمثال من صناعة الحثيين

وكانوا يعرفون صنعة الحدادة. وذكر الكتاب المقدس في السفر المذكور اسم الملك عوج فقال عنهُ انهُ «وحدهُ بقي من الجبابرة وسريرهُ من حديد... طولهُ تسعة اذرع وعرضهُ اربع اذرع بذراع رجل». وكان في حوران ستون مدينةً محصّنة لها ابواب ومراتيج (يشوع ٢١: ٢٧). وكان ملك باشان يُقيم في عشتروت وهي من اعظم مدنهم مع ادرعي (درعا) وسلكة (صلخد) وجولان

وقاتل بنو اسرائيل امراء تلك البلاد قبل دخولهم ارض الميعاد وفتحوا «جميع مدن السهل وكل جلعاد وكل باشان الى سلكة وادرعي. وجاء ذكر هذا النصر في الزبور (١٣٤: ١٠–١٢) فقال «هو الله الذي ضرب امماً كثيرة وقتل ملوكاً مقتدرين سيحون ملك الاموريين وعوجاً ملك باشان وسائر ممالك كنعان واعطى ارضهم ميراثاً لاسرائيل شعبهِ».

وشهدت بلاد باشان مواقع دموية كثيرة بين ملوك اسرائيل وامراء دمشق. واجتاحها الاشوريون في القرن التاسع قبل المسيح. وانتصر ملكهم سلمناصر الثاني على حزائيل ملك سورية ودوّن ذكر حملتهِ عليهِ بالكتابات المسمارية فقال:

«قد حاصرتُ حزائيل في دمشق عاصمته وقطعت اشجاره وبانت جبال حوران وهدمت مدنًا كثيرة ودمرتها واحرقتها وغنمت غنائم لا تحصى»

وفي القرن السابع قبل المسيح حمل اشور بنيبال على «أبيادَه» ملك العرب وحاصر سكان حوران وضيّق عليهم فاخضعهم بالجوع

وسار ايضًا الى فتح سورية وحوران قمبيس وداريوس في القرن السادس فاصبحت إيالةً من ايالات الفرس ولم يفسح الاجل للاسكندر وقتًا لمقاتلة العرب فاهملهم ولم يدخلوا في طاعته لكن الملوك السلوقيين توفقوا الى اخضاعهم بمساعدة الرومان

﴿ دولة النبطيين ﴾ وفي ايام الفرس والسلوقيين كان النبطيون وهم في الارجح من العرب قد انشأوا مملكة في صلع (Pétra) بين بحيرة لوط والبحر الاحمر وبسطوا سيادتهم على حوران. وفي السنة ٨٢ الى ٦٢ ولي مدينة دمشق الحارث الثالث الملقب

بحب اليونان وهو احد ملوكهم وكانت مملكة الانباط تنقسم الى مقاطعات صغيرة يحكمها قائد يلقب ستراتيجاً (Στρατηγός). ومما يُعرف عن ديانتهم ما ذكره سترابون الجغرافي (ك ١٦ ف ٤-٢٦) انهم كانوا يقيمون الصلاة على سطوح بيوتهم ويؤلهون ملوكهم بعد موتهم. والشاهد في ذلك الأعلام التي على مثال عبد ملك تضاف الى «عبد» كانهم وقفوا نفوسهم لخدمة البعض من آلهتهم او من ملوكهم المتألهين. اما معبد النبطيين الكبير فكان في عاصمتهم صلع شيّدوه لإكرام الشمس انما كانوا يدعونها ذا الشرى (Dusarés) اي الاله المنير. وبنوا مساجد فخيمة ظهرت آثارها في عاصمتهم وفي جوارها (المشرق ١٣ [١٩١٠]: ٧٨٧)

وقبض النبطيون على زمام التجارة بين خليج العجم والبحرين الاحمر والمتوسط فسيّروا قوافلهم الى اقاصي البلاد حتى الهند (راجع كتاب الاب لامنس عن مكة قبل الهجرة la Mecque. 49). واستعملوا الخطّ لتسهيل المعاملات بين البلدان وعُرفت كتاباتهم بالنبطية فشاعت في انحاء الجزيرة وكان اصلها آراميًا وهي التي طرأ عليها تغيير مع الايام فتحوّلت الى الكتابة العربية

﴿حوران في عهد الرومان﴾ ولم يجهل الرومانيون اهمية موقع سورية الجغرافية وضرورة التملك على بلاد حوران لمراقبة حركة التجارة بين خليج العجم والبحرين الاحمر والمتوسط ففي السنة ٦٤ ق م فتح سوريّة القائد الروماني بومبيوس. فانسحب الحارث ملك النبطيين من دمشق ودفع الجزية للرومان

وفي ايام اوغسطوس قيصر تشكى الدمشقيون من تعدّي لصوص البادية عليهم فعهد العاهلُ الروماني الى هيرودوس بحفظ الامن وولّاه بلاد اللجا (Trachonitis). فكبح هيرودوس جماحهم واقام في البلاد قوة عسكرية مؤلفة من ٣٠٠٠ رجل من الأدوميين

وفي السنة ١٠٦ بعد المسيح توفّي مليخوس (مالك) الثالث اخر ملوك الانباط وزالت دولته وجعل الرومانيون بلاد حوران جزءاً من ايالة «عربيّة» (Arabia) الرومانية وكانت عاصمتها بصرى

وكان اللصوص يغتنمون الفرصة من تضعضع القوة في السلطان ما بين العرب ليعيثوا في الارض فساداً. فكان اوّل ما همّ به الرومانيون انشاء محطّات عسكرية

اضبط البدو وإحراز الامن للبلاد . وقد ذكر المؤرخون اسماء عشر معسكرات اخصّها بصرى وفينه (Phænus مسميه) وتريكوميا (Tricomia صلخد) وهي النقطة العسكرية الاعظم شأناً

وفتح الرومانيون الطرق في حوران تسهيلاً لحركات الجنود الحربية عند اللزوم. منها الطريق الرابطة فينه ببصرى وجرش والطريق الواصلة فيلونه وقناطه (قنوات) بالطريق الكبرى والطريق بين بصرى وصلخد. وقد اكتشف العلّامة شوماخر (Schuhmacher) قطعاً من الطريق الرومانية الممتدّة على ما يظهر بين دمشق والاردن

﴿ بنو سليح وبنو غسّان ﴾ وفي حوران الى ايّامنا هذه آثار لآبار ارتوازية وصهاريج وغيرها من اعمال العمران الراقي اصلها الى عهد واحد وامة واحدة ارتأى البعض انهما للرومان ورجح غيرهم الى انها لقبيلة عربيّة. قال العلّامة وتستشتين (Wetzstein: Reisebuch)

« في اوائل القرن الماضي حلّ بلاد سورية الشرقية قبيلة عربية تعرف ببني سليح فوجدوا الارض خرباً وقد كانت الحروب قد خربتها فاستولى الرومانيون استقلال السلبيين وعهدوا اليهم بحراسة حوران من شر اللصوص وتعميرها »

وفي اواخر القرن الثاني للمسيح زحف على سورية الوسطى قبيلة اخرى من العرب وهم بنو غسّان اليمانيون. وقد روى خبرهم كتاب الاغاني (١ (١٩ : ٩٥) قال (١ :

« ولما ارسل الله سيل العرم على اهل مأرب وهم الازد قام رائدهم . . فقال من كان منكم يريد الخمر والخمير والامر والتأمير والديباج والحرير فليلحق ببصرى والحفير وهي من ارض الشام فكان الذين سكنوه غسّان »

فعاهد الغسانيون بني سليح على مراعيهم الى ان عظم شأنهم فقاتلوهم وامتلكوا البلاد لكنهم خضعوا للسلطة الرومانية . ولم يقاومهم الرومانيون بل استعانوا بهم وتركوا لهم امراءهم وقلّدوهم الوظائف ولقّبوا كبيرهم بلقب يطابق اي من اعيان المملكة او دعوه فيلاركاً اي رئيس القبيلة . اما بنو غسان فلقبوا اميرهم ملكاً وقطن بنو غسان جنوبي حوران اولاً ومنها انتشروا في كل الجبل وفي اللجا وسائر انحاء

١) اطلب المجلّد ١٩ ص ٩٥ وراجع ايضاً رنات الثالث والثاني للاب صالحاني (٢ : ١٠

النقرة حيث شيّدت احدث مدن حوران وقاموا في الجولان وعجلون وبلغوا مقاطعات البقاع الجنوبية حيث بنوا مدينة امّ الجمال وكانت كلها مسيحية

وعمل بنو غسان في سبيل برّ المياه وري الاراضي كما كانوا فعلوا في اليمن فانقلبت الصحارى بين ايديهم الى حقول قمح . واقتفوا في بنايتهم آثار الصانعين فاستعملوا المداميك الطويلة الضيقة بمثابة الخشاب سقفوا بها البيوت وتعلموا منهم بناية البروج المربّعة الزوايا وسمّوا بعض البلدان باسامي يمانيّة كبصرى ونجران

وذكر المؤرخ أميان مرسلان من كتبة القرن الرابع مدينة بصرى فوصفها بالمدينة الكبيرة . وقد قدّر العلماء الاثريون عدد سكانها في ايام عزّها اي في القرن الرابع بنحو ثمانين الفاً لكثرة ما فيها من الانقاض الى يومنا هذا

وكانت إلهة بصرى وشفيعتها تدعى « إلهة النصيب الصالح » (Ἀγαθὴ Τύχη) ومنها شاعت عبادة هذه الالهة في حوران وكان لبصرى تاريخ خاصّ يُعرف بها يبتدئ سنة ١٠٥ للمسيح وذلك منذ تحوّل حوران . الى ايالة رومانية

ومما يستدل به من النقوش والكتابات القديمة انّ غرس الكرمة والعناية بها كان قد اعتاده الاهلون لانهم خصّوا بعبادتهم اله الكرمة ديونيسيوس وهو المدعو ايضاً باخوس ودعوا اولادهم باسمه الى اواسط القرن السادس

اما بلاد اللجا التي بلغت في ايامنا من الوحشة والخراب ما لا يكاد يتصوّره الّا من رآها فكان عدد سكانها على ما يزعم البعض يتراوح بين ٤٠٠،٠٠٠ و ٥٠٠،٠٠٠ وان اعتبرنا أنّ الارياف تُحسب عامرة غنيّة ان سكن فيها ٥٠ شخصاً في مساحة كيلومتر واحد مربّع تسنّى لنا ان نعرف نجاح وخصب تلك البلاد في العهد الروماني

اما اللغة الشائعة بين الغسانيّين فكانت العربية او لهجةً قريبة منها . وكانت اليونانيّة لغة الكنيسة ولغة العالم المتمدّن ولغة الشبيبة الراقية كالافرنسية في سوريّة على عهدنا . وذلك هو السبب لوفرة الكتابات اليونانيّة التي وجدت في حوران

﴿فنّ البناء السوري﴾ ولما تنصّر الغسّانيون جعلوا يبنون الاديرة والكنائس فكثر عددها في البلاد ولا تزال اثارها الفخمة تشهد الى يومنا برقيّ حوران وفضل صنّاعها على فن البناء . قال العلّامة دي ڤوكوه ما تعريبهُ :

« ان ارباب الفنّ شادوا بنايات تلك البلاد العديدة فتقلدوا الفن اليوناني الجيد وتشبّثوا بتطبيق مبادئهِ اكثر منهم بأخذ مبانيه . نعم انهم لم يبلغوا من حسن الذوق وحذق الصناعة ما بلغه من الكمال فنّ البناء في عصره الذهبي راغبًا أسيوا في صنعتهم ما قصّروه عن المصنوعات اليونان الاولى من روح التوازن والاعتدال فاضم كرهوا الافراط في التصنُّع ونبذوا استعمال الملاط واتخذوا من نواميس المادة كالثقل والارتكاز ما أكّد لهم متانة البناء والهمّم تخطيط رسومها تملّأوا مواقع الرحزفة على اليونان واخذوا عقد القوس والظهر عن الرومان واتبعوا طرائقهم . وبَذروا كلّ عضوٍ رأوه زائدًا وقاسوا العلوّ والعمق والطول والعرض لا على قاعدةٍ مطّردة ولكن بالمناسبة لما لديهم من حجم المرادّ وطبيعتها وبحسب ما ارتسموه لهم من رسمٍ ارادوا تحقيقهُ . فلم يستعملوا الّا قطعًا ضخمة من الحجر في رصف الاساس والمساند ولم يبالغوا في الارتفاع وجعلوا مقياس الابواب والنوافذ واحدًا لجميع البنايات كبيرةً كانت او صغيرة . وفي اوائل القرن الثاني عشر لما دخل سورية الافرنج من سياح وصليبيين ورأوا ما بقي من ذلك العمران استفادوا منه وجعلوا يتقادونه فحملوا معهم الى اوروبا نفوذ الفن السوري »

وذكر ابو الفداء المؤرخ ملوك غسان ومآثرهم الدينيّة والمدنيّة (طبعة ليبسك ١٨٣١ ص ١٢٨—١٣٠) :

« واول ملوك غسان جفنة . . . بنى بالشام . . . وملك بعده ابنه عمر وبنى بالشام عدة ديورة منها دير سالى ودير ايوب ودير هند . ثم ملك بعده ابنه ثعلبة وبنى صرح المدير في اطراف حوران مما يلي البلقاء . ثم ملك جبلة بن الحارث وبنى الناظر وادرح والقسطل . ثم ملك ابنه الحرث بن جبلة وكان مسكنه بالبلقاء فبنى بها الحفير ومعشه . ثم ملك الأيهم بن الحارث وبنى دير ضخم ودير البنوة . ثم ملك النعمان بن عمر بن المنذر وبنى قصر السويداء . ثم ملك النعمان ابن الحرث وهو الذي اصلح صاريج الرصافة وكان قد خربها بعض ملوك الحيرة اللخميين . ثم ملك الايهم بن جبلة بن الحرث وهو صاحب تدمر وبنى له بالبرية قصرًا عظيمًا ومصانع واظنّ انه قصر برقع . . .

❊ حوران في عهد العرب ❊

فتح العرب حوران بُعَيد موت محمّد صاحب الشريعة الاسلامية . قال ياقوت في كتابه معجم البلدان (٢ : ٦٥٤)

ولمّا سار خالد بن الوليد من العراق لمَدَد اهل الشام قدم على المسلمين وهم نزول ببصرى فضايقوا اهلها حتى صالحوهم على ان يؤدّوا عن كل حالمٍ دينارًا وجريبَ حنطة . فانتظم المسلمون جميع ارض حوران وغلبوا عليها وقتئذٍ وذلك في سنة ١٣ هـ (٦٣٥ م)

فمن هذه الجزية يُستدلُّ على خصب المدينة وثروة اهلها . وقسم العرب سورية الى خمسة اجناد او ولايات عسكريّة وهي شرقي الاردن وفلسطين ودمشق وحمص

وقنسرين (جنوبي حلب). قال ابن رسته (الاعلاق النفيسة ٧ : ٣٢٦) :

« وجند دمشق من الكُوَر الغوطة . . . وحوران ومدينتها بصرى واهلها قوم من قيس من بني مرّة خلا السويداء فان بها قوماً من كلب »

واخبر البلاذري في فتح البلدان (ص ١٢٨—١٢٩) انَّ عمر بن الخطّاب ولّى حوران علقمة بن عُلاثة فمات بها . وكان الحطيئة الشاعر قصدهُ فوقع موت علقمة قبل وصوله فقال يرثيه :

وما كان بيني لو لقيتُك سالمًا وبين النوى الّا ليالٍ قلائلُ
فان نحيَ لا املَلْ حياتي وان تَمُتْ فما في حياةٍ بعد موتك طائلُ

فاز اهل الوَبَر على اهل الحضَر وأكره الغسانيون على اعتناق الاسلام فتغيّرت حالة البلاد ودُمّرت الاديرة وعاد عهد الغزو والتلصّص . وكلّما انقلبت دولة وظهر حاكم جديد تجددت حوادث النهب والسلب التي امسى مآلها انحطاط البلاد من الحالة السعيدة التي رأيناها في عهد الرومان الى ما هي عليه اليوم من وحشة وخراب . ومن ذلك ما رواهُ ابن رسته (الاعلاق النفيسة ص ٣٧٣) :

وبعد تشتيت امر آل طولون خرج قرمطي اخر يكنّى ابا غانم في جمع من كلب ايضًا بنواحي الشام في سنة ٢٩٣ (٩٠٥م) وقوي امرهُ وكثر اتباعهُ وصار الى نواحي اذرعات وبصرى من حوران والبثنية من اعمال دمشق وعاث وقتل وسبى وصار الى مدينة طبرية من بلاد الاردن فدخلها في السيف »

وقس عليه حوادث جمّة . فحسبنا ان نذكر اسم تيمورلنك المشؤوم الذي اغار على سوريّة في سنة ١٤٠١ وتقدّم الى دمشق ونهبها ودمّرها وعاث فسادًا في ارض حوران وقد ينسب الاهلون طمس البئار العديدة التي كانت حوّلت الصحراء الى جنة غنّاء في العهد الروماني الغساني . ولم يستطع الاتراك ان يردّوا الأمن للبلاد لمّا كان دأبهم استثمار خيراتها والاغتناء من تعب فلّاحيها . فكان الحكام كبارًا وصغارًا يتثقّل مستديم قلّما يبقي الواحد منهم في وظيفته اكثر من عامين

وكاد يبيد اثر الطرقات العظمى التي اختزقها الرومانيون . وما عسى ان تنفع البدو وليس لهم معرفة بصناعة المركبات وتسييرها وهم يكتفون بالهجين ليقطعوا

فيافي الارض . على ان بلاد حوران اضحت طريق الحج الطبيعية للمدينة ومكة . ووصف ابن بطوطة حجَّهُ اليهما فقال في رحلته (١ : ٢٥٤ طبعة باريس ١٨٥٣)

« لمَّا استهلَّ شوَّال من سنة ١٣٢٦ (ايلول ١٣٢٦ م) خرج الركب الحجازي الى خارج دمشق ونزلوا القرية المعروفة بالكسوة فاخذتُ في الحركة معهم . . . وارتحلوا من الكسوة الى قرية تعرف بالصنمين مظلمة ثم ارتحلنا منها الى بلدة زرعة وهي صغيرة من بلاد حوران نزلنا بالقرب منها . ثم ارتحلنا الى مدينة بصرى وهي صغيرة . ومن عادة الرَّكب ان يقيم بها اربعاً ليلحق بهم من تخلَّف بدمشق لقضاء مآربه . والى بصرى وصل رسول الله صلعم قبل البعث في تجارة خديجة وبها برك ناقته . قد بني عليه مسجد عظيم يجتمع اهل حوران لهذه المدينة ويتزود الحاج منها ثم يرحلون »

٢ ابرشية حوران للروم الكاثوليك

هي اوسع ابرشيات الطائفة الملكية الكريمة يحدُّها شمالاً خط خيالي يمتدُّ من جبل الشيخ فيجتاز جنوبي الميدان في ظواهر دمشق وينتهي في البادية . وشرقاً صحراء سورية . وجنوباً وادي الدانوج ووادي رقاد ووادي العجر . غرباً خط عامودي يصل الى الجنوب من نهر عنتر وهي تربة [illegible] تضم جبل الشيخ

ان راعي الابرشية الحالي هو السيد نيقلاوس القاضي [illegible] سيادته في دمشق في ٢٠ حزيران سنة ١٨٦١ وتلقن العلوم الكهنوتية في مدرسة عين تراز وسيم كاهناً باسم بطرس فترأس المدرسة البطريركية في دمشق ثم رُقي الى الكرسي الاسقفي في ١٠ شباط سنة ١٨٨٩ على يد البطريرك غريغوريوس يوسف وسيم مطرانياً على بصرى وحوران

وانَّ لقبي لقب سيادته هذا دليلاً على ما كانت عليه تلك البلاد من الحضارة المسيحية قبل الفتح الاسلامي فكان لمطرانية بصرى السيادة على ٣٥ اسقفاً مراكزهم في شرقي الاردن الَّا ثلاثة منهم لم يكن لهم مركز بل كانوا يسكنون الخيم مع رعاياهم اهل الوبر

ولا عجب ان رقي الكاهن الشاب الى منصب الاسقفية على حداثة سنه إذ كان فيه من المزايا التي تؤهله لوظيفته الجديدة والرعية بحاجة الى مطران غيور نشيط يرضى بان يعيش عيش المرسلين المجاهدين ويحمل ثقل الرئاسة من دون ان يتمتَّع بما تؤديه

لاصحابها من الشرف والامتيازات في المدن « كخادم الله في الصبر الكثير والمضايق والضرورات والمشقات والجلدات والسجون والاضطرابات» (٢ كور ٦ : ٤)

واوّل ما همَّ به الاسقف كان امر زيارة ابرشيته فعرف احتياجاتها وجعل يسعى في تشييد الكنائس على قدر ما كانت تسمح له الظروف وفتح المدارس واستدعى لمساعدته الاباء اليسوعيين فلبّوا دعوته . على انّ الحوادث المشومة التي حصلت في ايام الحرب الكونيّة كادت تطمس آثارها لمّا غادر المرسلون البلاد فحلّ ما حلّ فيها من الويلات ونُفي اسقف حوران واحتمل الاضطهاد لانهُ كان صديقاً لفرنسة ومنها كان يستمدُّ الحسنات ليقوم بوظيفته بين سكان قرى ابرشيته

ولكن لم تنتهِ الحرب الكبرى الّا وعاد الراعي الصالح واستدَّ ثغرة المرسلين وكان اول من لبّى دعوته بعض آباء رسالتنا اخذوا على عاتقهم وظيفة تعهُّد شؤون المدارس في ابرشية حوران الى يومنا . ولمّا دعيتُ الفقير في ايام الصوم الماضي الى القاء مواعظ الرياضات في ابرشيته سررتُ بلثم اثامل سيادته وزرت بركته وكانت اول رياضة اعطيتها هناك باشرتها في خبب فدونك ما اطّلعتُ عليه من احوالها

﴿ خبب ﴾ موقع هذه القرية في شمال بلاد حوران على حدود اللجا القريبة يقطع القطار الحديدي ٧٠ كيلومترًا من الشام الى محطتها . والقرية تبعد عن المحطة ثلثة ارباع الساعة وفي شمالها قريتا بصير وجباب . الاولى على مسافة ساعة منها والثانية على مسافة ساعتين . وغربيّها قريتا ثبنة والقنية تبعد عنها الواحدة ساعةً وربع الساعة والثانية ساعة وثلثة ارباع الساعة . وشرقيّها خربة ايب على بُعد ساعة منها يشرب من مائها اهل خبب وهناك مزار المليحة للدروز والعربان . وفي جنوبها سور اللجا حيث يقيم طلال شيخ مشايخ عربان اللجا

يبلغ عدد سكان خبب زهاء ١٢٠٠ يضاف اليهم ٤٠٠ شخص بين مهاجرين ومرابعين وعيان . واصل اهل خبب من صلخد هاجروا من جنوبي جبل الدروز في اواخر القرن الثامن عشر خوفاً من الوهابيين وهم ينتسبون الى عرب غسّان . وقد ثبتوا الى يومنا على عادات اجدادهم يلزمون الحياة البدوية وينتسبون الى بطون او أُسر اخصُّها بيت حاتم وقريط وخلّاف والزراعنة وعكه والصواونه ورعد وكعب وهيتاني والفرازي والشناعة والدهيم . وفي خبب مدرستان الواحدة للذكور وعددهم

٨٠ تلميذاً يهذبهم معلمان والاخرى للاناث وعددهن ٣٠ لهن معلمة واحدة

وللخب سوق زرتُ حوانيتها واستقصيت عن اسعار مستغلاتها فكانت في الربيع الماضي على ما ترى :

القمح	المد	بنصف ليرة ذهب	اللحم	الرطل	٦٠ غرشاً فضة
الشعير	»	بمجيدين ونصف	السكر	»	٣٥ »
السمن	الرطل	بمجيدي ٥	الحلاوى	»	٥٠ »
البن	»	١٣٠ غرشاً فضة	القضامة الملبسة	»	٣٠ »
الزيت	»	بمجيدي	الدبس	»	بمجيدي
الزيت الحلو	»	٥٥ غرشاً فضة	الأرز	»	»

وفي خب مقام الكرسي الاستفي . أقيمت فيما من السنة ١٩٠٤ الى ١٩٠٧ كنيسة كاتدرائية واسعة ذات ثلثة اسواق متقنة الهندسة . وقد بُنيت بالحجر البركاني الاسود يخدمها كاهنان وهما حضرة الايومن يرجس سلمان وبطرس درويش

وفي خب آثار قديمة اخصُّها كتابات يونانيَّة قد وقف على بعضها الاثريون خصوصاً وادنغتون والمركيز دي فوكويه وغيرهما . والبعض لا يزال مجهولاً ومما وقفنا عليه فذكرهُ الاثريون كتابة مدفنيَّة لجرم واولادهِ تُرى على حجر أُدغم في الجدار الغربي من كنيسة خب (مجموع وادنغتون تحت العدد ٢٥١٣)

ومما نشرهُ وادنغتون كتابةٌ في بيت هلال (العدد ٢٥١٥) يذكر فيها انَّ المسمَّى مليكث بن حام بنى هيكلاً اكراماً لمعبوده

وهناك كتابات اخرى اخذنا رسومها فننشرها او ينشرها غيرنا اذا تحققنا انَّها مجهولة . منها كتابة في بيت احد مختاري القرية نجيب افندي الحاتم على عمود مربَّع الزوايا وكتابة اخرى في بيت الزراعنة داخلة في حائط الدار شرقاً قريباً من الباب وهي طويلة تبلغ عشرة اسطر وفي بيت الهلال ايضاً عمود نُقشت عليه باحرف كبيرة كتابة قديمة قصيرة . وفي بيت يوسف افندي الخوري كتابتان أُخريان . وهذه الكتابات قد طُمس بعض كلماتها بفعل الزمان يحتاج الاثريون الى درسها زمناً طويلاً لادراك معانيها

﴿ اهل خب في الحرب الكونيَّة ﴾ قد قاسى اهل خب في زمن الحرب الكونيَّة عناء كبيراً بسوء معاملة الاتراك . فلمَّا كانت اواخر السنة ١٩١٤ ودخلت

تركيّة في الحرب مع الدول المركزيّة طلبوا من خبب رجالًا بصفة جمّالة في الجيش ثم ما لبثوا ان دعوا رجال القرية كلّها الى ازرع ليتثبّتوا على قولهم هُويّتهم وما كانوا عندئذٍ حشدوا عسكرًا من غير المسلمين

فسار الى ازرع رهطٌ من شبان ورجال خبب وتبنة وشقراء وتامر وسائر القرى ليدوّنوا اساميهم في سجلّ الحكومة ولساعتهم اغلقت عليهم الابواب وأُكره نحو ٤٠ رجلًا من اهل خبب على الخدمة كمثال لا كجنود على انهم تفرقوا طرائق فمنهم من يسيق الى الحرب ومنهم من فدى نفسهُ ببدلٍ مالي ومنهم من تهاون الاتراك بجراستهِ فنُفي ونجا بنفسه . وكثيرون من الذين حُشدوا بالجيش ووُجهوا الى الاناضول كانوا يفرّون من غير عناء متحدرين من القطار لان سيره كان بطيئاً جدًّا فكانوا ينزلون منهُ ويعودون الى قراهم ولم يخدم منهم احد اكثر من شهر او شهرين الّا اثنين بقيا في الجيش ستة اشهر وكان الاتراك يعرّجون الى القرى من حين الى آخر واذا وجدوا فيها رجلًا بسنّ العسكرية يأخذونهُ ولم يكترث المأمورون الاتراك الى التحقيق في امرهم أينتمون في الجنسيّة ام لم يُنظموا بعد ولو علموا ذلك لحذروا تسعاهم لانهم كانوا اذا حشدوهم واتوا بهم الى ازرع يفتحون سجلّ اسامي القادمين من طوابيرهم ويقرأونها وكان اصحاب الاسامي يسمعون اساميهم ويتغيّرون ساكتين . واذا سُئلوا استعاروا لهم اسماً جديداً فأُحصوا في سجلّ جديد وسيقوا مرّة اخرى الى الحرب ثمّ يعودون لائذين بالفرار . فتجدُّ الحكومة في طلبهم ولم تكن لتهتدي الى هويتهم فتعود تجمعهم اينما وجدتهم وهم يعودون يرجعون الى بلادهم الى ان امسى اخيرًا لدى المأمور في ازرع مجلدات ضخمة من الاسماء ومعظمها اسماء مستعارة وهميّة لا مسمّى لها . وكان المسيحيون والمسلمون يتساعدون في هذه الحيل فيتبادلون اسماءهم وقد قيل لي ان احد هؤلاء الرجال القي القبض عليه ١٢ مرّة بعد فراره ١٢ مرّة . وكانت معاملة الاتراك مع المسلمين اشدّ فظاظة منها مع المسيحيين وكان البعض من الشبان يقولون للمأمور : اقتلني فاني اينما ذهبتُ لا بدّ لي من الهرب وفعلًا ان من الشبان من عاد ماشياً من حلب الى الشام ومن بئر سبع الى حوران فارًا من الجيش التركي

على ان حوران ساعدت الحكومة التركيّة بتقدمة بعض المواد الضرورية للجيش

فأدّت قرية خبب وحدهـا ٣٤ الف مدّ من الحب ثلاثة ارباعها قمحاً في سنة ١٩١٦ و ١٧ الف مدّ في سنة ١٩١٧ وعشرة آلاف سنة ١٩١٨ ومنها خذ لك مثلاً لما جرى في سائر القرى

وقدّمت خبب على مدة الحرب كلها ١٠٠٠ رأس غنم او ماعز و٢٠٠ رأس بقر و٥٠ جملاً و ٥٠ رأس خيل و ٥٠٠ رطل سمن . اما الحكومة فلم تدفع تلقاء تلك الفرائض الباهظة اكثر من ٢٠٠٠ ليرة عثمانيّة ذهب

وكان قد منع على الحورانيين تصدير القمح لكن البعض كانوا يهربونه . وفي تلك الأيام تهـافت على حوران كثيرون من اللبنـانيّين الجياع وكان البعض منهم يبيعون الفلاحين ما استطاعوا حمله من سجادات او اوانٍ ثمينة تلقـاء شيء من القمح والبعض يتجولون بين القرى لطلب لقمة يسدّون بها رمقهم . ومن الذين اشتهروا بأريحيتهم في تلك الايام واستحقّوا ذكرًا حميدًا الامير سليم الاطرش الدرزي فانـهُ كان يفتح بيتهِ للجياع ويوزع عليهم البرغل كل عشية . قيل ان احد خدّامه ضرب رجلًا كان يسرق الطعام فانتهرهُ الامير قائلاً : دعهُ فانهُ جوعان محتاج الى قوته . وكان الامير سليم معروفاً بمروّته وكرمه ولولا اختطافته انياب المنية لكان ولا ريب قام بوجه اخوانه من زعماء الدروز ليمنعهم عن اضرام نار الفتن في يومنا هذا

الازمة الزراعية في خبب وحوراته

وقد بُليت خبب في هذه السنة بل حوران كلهـا بازمة زراعيّة تتفتّت لهـا الاكباد . وذلك بسبب قلّة المطر الذي مُنيت بهِ سوريّة عموماً وحوران خصوصاً . ولذلك ما كادت البلاد ترى ربيعاً فاتت المواشي من نقص الكلإ والماء . وقد اخبرني احد وجوه خبب انهُ لم يبقَ لهُ من قطيع غنمهِ البالغ ١٩٢ شاةً سوى ١٥ ومـات الباقون لفقد المراعي والمياه

وقد كنتُ ونحن بعد في شهر آذار حيث ينمو الزرع والضرع وتتوفّر المراعي وتسمن الماشيـة ارى البقر تسير سيرًا بطيئاً منتفخة البطن عجفاء وجلدهـا ملتصق بعظامها ولا يكاد يُسمع في البوادي لا ثغاء ولا رغاء

وكان ذلك في ايّام الربيع ويزيد الصيف عادةً يبساً وجفافاً فلا ينتظر الفـلّاح

منهُ خيراً . ولذلك ترك كثيرون منهم اراضيهم وقصدوا المدن ليطلبوا لهم ماء وخبزاً وهم في الامس كانوا يمرّنون سوريّة بغلّاتهم

على انّ الله رحم البلاد في اوائل نيسان فهطلت مياهٌ غزيرة فامتلأت البئار واستبشر الناس خيراً . وعلى كل حال ان مسألة المياه في جهات حوران مسألة حيويّة تحتاج الى نظر خاصّ من قِبَل الحكومة . فانّ البئار والاحواض قليلة بالنسبة الى حاجات كل قرية

فهذه خبب ليس لها إلّا اربعة آبار يستقي منها الاهلون والطروش . بئران منها في داخل القرية وبئران على مسافة نصف ساعة منها . فكثيراً ما تشحّ بئرا القرية فتَرِدُ الفتيات البئرين البعيدتين ويُمضينَ الساعات الطوال ينتظرن دورهن ليملأن اوعيتهنّ ماء

واشقى منها حالًا ازرع اذ ليس لها الّا بئر واحدة رأيت الاهلين يتزاحمون حولها فيتقاتلون على جرّة ماء . فيقصدون نبعَين من قرية شقراء يزعمون ان المياه هناك لا تنضب . فلما رأيتُ شقرا وجدت نبعَيها شحيحين لا يكفيان لاهلها

واسعد حظاً منها قرية نصيب لوجود حوض كبير عميق يروي لاعلى الرأي وانّما مياههُ عند سياحتي في حوران كانت لا تزيد عن ربع كميّتها في العام الماضي

وكانت قرية تبنة ترتوي من غدير يأتيها شمالًا من جبل الشيخ طريق الصنين فيملأ احواضها ويكفيها مؤونة العطش حتى شهر ايلول . لولا انّ اهل قرية الحجّة توفّقوا الى اقناع الحاكم بتحويل الغدير الى قريتهم أيّاماً معدودة فاختفوا ترعةً وأجروا مياه الغدير الى بلدتهم وحرموا منها اهل تبنة فوقع من جرّاء ذلك نزاع انتهى بنضوب الغدير فانقطع الماء عن الجميع

فترى ما لهذا الامر من عظم الشأن . وانّ ما قلتهُ عن بعض القرى التي زرتُها يصدق ايضاً على اغلب بلاد حوران كما اثبتهُ لي كثيرون ممّن يعرفون البلاد كلها . وكانوا في انتظار الجنرال سرّاي ليزورهم فيعرضون عليه مسألة موارد المياه فلعلّهُ يجد للداء دواء بان يرسل مثلًا بعض المهندسين الاختصاصيين لكشف الينابيع وبرّ المياه . وقد اكّد لي الاهلون انهم لا يبخلون عليهم بالمساعدة أيّة كانت ادراكاً لهذه الغاية الحيويّة من عمل وحفر وشراء ادوات لا يطلبون سوى من يرشدهم الى العمل

(له صلة)